

السمات الفونولوجية للفونيمات التمييزية من منظور علماء التجويد
قراءة في النظام التقابلي للتفخيم والترقيق

The Phonological Features of the Distinct Phonemes from the Perspective
Of Intonation Scholars
Reading In the Contrastive System of Amplification and Lamination

ط.د. مغاري جازية*

جامعة أحمد زيانة غليزان meghari.djazia123@gmail.com

المشرف: أ.د. بن شيحة نصيرة

جامعة غليزان nacera.benchiha@cu-relizane.dz

مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان-

تاريخ الإرسال 2020-12-02 تاريخ القبول 2021-03-11 تاريخ النشر 2022 / 12 / 28

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى البحث في ظاهري التفخيم والترقيق؛ باعتبارهما من أهم الثنائيات الصوتية المتقابلة التي تميزت بها اللغة العربية، لأنهما يشكلان قيمة خلافية للمنطوق ضمن مختلف الأنساق اللغوية، وبالأخص في علم التجويد والقراءات القرآنية. وقد حاول علماء التجويد ضبط الملمح الأدائي للتفخيم والترقيق، والوقوف على السمات الفونولوجية المتحكممة في نمطها الفونتيكي الأدائي، وفق العلائق الجوارية النسقية التي تضمها، والخلفيات السياقية المحيطة بها؛ فالجهود التي قدمها علماء التجويد في هذا المجال، لم تكن منفصلة عن النسق الصوتي أو السياق الدلالي، الذي تفضي إليه القيم الخلافية لهذه المكونات الصوتية في الخطاب القرآني.

ووفق هذا الطرح، حاولنا الوقوف على طبيعة النظام التقابلي للفونيمات التمييزية (تفخيم-ترقيق) وانعكاساتها الصوتية والدلالية، من خلال استجلاء القيمة الخلافية، التي تؤدي بدورها إلى تمايز دلالي للمفردة في سياقها القرآني، مستدلين في ذلك بآيات من الذكر الحكيم.

الكلمات المفتاحية: التقابل الصوتي، القيم الخلافية، السمة الفونولوجية، التفخيم، الترقيق.

Abstract:

This study seeks to investigate the two phenomena of amplification and tafsir, as they are among the most important contrasting phonetic binaries that characterize the Arabic language, because they constitute a controversial value of the utterance within the various linguistic formats, especially in the science of intonation and Quranic readings.

The intonation scholars have tried to control the performative feature of amplification and lamination, and to identify the phonological features that control its phonological performance style, according to the systemic neighborhood relationships that it includes, and

* المؤلف المرسل مغاري جازية

the surrounding contextual backgrounds. The efforts made by the scholars of intonation in this field were not separate from the phonetic pattern or the semantic context, which the controversial values of these vocal components in the Qur'anic discourse lead to.

According to this proposition, we have tried to identify the nature of the contrastive system of the distinct phonemes (amplification - tarqiq) and their phonetic and semantic repercussions, by clarifying the controversial value, which in turn leads to a semantic differentiation of the word in its Qur'anic context, citing verses from the Holy Qur'an..

Keywords: Phonetic Contrast, Controversial Values, Phonological Feature, Amplification, Lamination.

المقال:

1. مقدمة :

إن اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية وفكرية، لا تكاد تنفك عن جملة الأحكام و الأنساق التي تحكم باقي الظواهر الأخرى، كظاهرة الازدواجية القائمة على نظام الثنائيات المتقابلة، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾¹ ؛ فلا وجود لشيء على وجه الأرض إلا وله ما يقابله، وتتحقق هذه الثنائية ضمن مفردتين تحمل كل منهما عكس المعنى الذي تحمله الأخرى، نحو: الحياة والموت، الخير والشر، الشكل والجوهر وغيرها من الثنائيات المتقابلة التي تجتمع في شيء واحد؛ فالسلب يقابله الإيجاب، والصدق يقابله الكذب إلى غير ذلك. ووفق هذا المعطى، تبنى البحث اللغوي فكرة الثنائيات في اللغة لأهميتها في الدرس اللغوي العربي، وذلك من خلال التعرض لأهم القضايا اللغوية؛ كقضية اللغة والفكر، اللفظ والمعنى، الشكل والجوهر، وغيرها، ونستشف ذلك من خلال ما طرحه إخوان الصفا حول الثنائيات التي تحكم اللغة، حيث حصروها في تركيب " عقلي ولفظي"² ؛ فالأول روحاني معقول والآخر جسماني محسوس، ومردهم في ذلك إلى التصور والكلام، وأن اللغة في نظرهم "تعبير ومعبّر عنه"³ ، بمعنى التلطف والصورة الذهنية المقابلة له.

ولئن كان جوهر الثنائيات قائما على مبدأ التقابل، فإن مفهوم اللغة انحصر بين عدة مفاهيم ثنائية متقابلة سواء أكانت ضدية أم تناظرية؛ وبالأخص لدى الفلاسفة، من بينهم "أرسطو" الذي درس التركيب اللغوي ضمن ثنائية "المادة والصورة"⁴، كظاهرة طبيعية متحققة في هذا الوجود؛ فالصورة الذهنية المجردة تقابلها أجسام محسوسة متجسدة في الواقع تعبر عنه هذه الصورة، ولأن وجود علاقات التقابل لا يلغي وجود المضمون المادي للعناصر المتقابلة، وقد اعتمد الفلاسفة ظاهرة التقابل كوسيلة من وسائل الإقناع.

ومن منظور آخر، شكلت هذه الازدواجية قيما خلافية على مستوى الصوت اللغوي المنطوق، وفق معايير محددة تحكمها الثنائيات المتقابلة ذات البعد الدلالي المتحقق ضمن الأنساق اللغوية؛ فالعلاقة القائمة بين الصوت والدلالة، حددت لنا طبيعة هذا البحث الذي يتركز على مسألة الضدية، المستوحاة من التبدلات الصوتية للمنطوق، وفق ثنائية وصفية للوحدات الصوتية التمايزية، والتي انبثقت عنها مجموعة من المساءلات التي تمحورت حول أهمية النظام الثنائي الذي يكسب الصوت وظيفته التمييزية وفق ما يعرف بالقيم الخلافية.

2. التقابل الصوتي:

اهتم علماء العربية القدامى والمحدثين بالأصوات اللغوية، ومدى تأثيرها الدلالي لأهمية الصوت كمدرک سمعي تتحقق من خلاله عملية التواصل بين أفراد المجتمع، وعلاقته الوثيقة بالفكر المنتج له؛ فالصوت هو الدال المعبر عن المعاني والأفكار؛ باعتباره " أثرا سمعيا يصدر طواعية واختيارا عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزا أعضاء النطق" فهذا الأثر يظهر في صورة ذبذبات صوتية تنتجها أعضاء النطق⁵ لتصل إلى أذن السامع محملة بدلالات معينة.

وقد اتضحت ملامح الدراسة الصوتية القائمة على نظام الثنائيات المتقابلة مع ما طرحه إمام النحاة "سيبويه" ضمن كتابه، الذي ذكر من خلاله صفات التي تقع ضمن علاقات ثنائية تقابلية، تجعل منها أزواجا تربطها علاقة تلازمية، هذه التقابلات تمثل التباينات الحاصلة بين صوت وآخر، إما من حيث المخرج أو الصفة، أو كلاهما معا، وقد عبر عنها تمام حسان بمصطلح "القيم الخلافية"⁶ التي تعتبر عنصرا أساسيا من عناصر النظام الصوتي في اللغة، وأهم هذه القيم اختلاف الوظيفة المؤداة.

ومن هنا؛ فإن علم الأصوات ينهض على نظام تقابلي، لتصنيف الأصوات وفق معايير محددة، بدءا بثنائية "الصامت والصائت"، لأهميتها في المبحث الصوتي، ولأنها الأصل الذي تتفرع عنه باقي الثنائيات ذات الصفات التمييزية التي مثلت القيم الخلافية في الأنساق اللغوية.

1.2 الصامت والصائت:

إن الحديث عن الصوت اللغوي يستوجب التفصيل في مكوناته الأساسية المتمثلة في "الصوامت والصوائت" باعتبارها وحدات صوتية مكاملة لبعضها البعض؛ بحيث لا يفارق أحدهما الآخر، وقد أقر ابن جني بقوة العلاقة بينهما قائلاً: «لما كان الحرف قد يوجد، ولا حركة معه، وكانت الحركة لا توجد، إلا عند وجود الحرف، صارت كأنها قد حلت، وصار هو كأنه قد تضمنها»⁷؛ فتعدو فكرة الفصل بينهما وهمية لاستحالة تحققها؛ فكلاهما يؤدي وظيفة واحدة وهي الانتقال من حالة الإصمات إلى حالة الإظهار؛ لأن الصائت يتحقق سماعا عند النطق بالحرف.

وقد اهتدى علماء العربية بدوقهم الفطري إلى وضع تعريف يتماشى وطبيعة كل منهما بدءا بالصامت، هذا المصطلح الذي أطلقه المحدثون على مفهوم الحرف عند القدامى، وهو ذاك «الصوت الذي يحدث عند النطق به انسداد جزئي أو كلي، وللصامت في دراساتنا العربية أسماء أخرى كالصحيح، والساكن، والحبيس»⁸ الذي ينحبس الهواء أثناء النطق به في أي منطقة من مناطق النطق؛ فالصامت يتحقق من خلال حركتي الانسداد والانفتاح المصاحبة لأعضاء النطق لحظة التلفظ به.

أما الصائت فيتأتى عبر «اتساع مجرى هواء الفم من غير تعرض لجريانه»⁹، ويعرف أيضا بالحركات التي هي «أبعض حروف المد واللين... فالضمة بعض الواو، والكسرة بعض الياء، والفتحة بعض الألف»¹⁰؛ فيمكن اعتبار الفتحة والضمة والكسرة أصولا، والألف، والواو، والياء فروعاً، وسميت بذلك نسبة إلى العملية الفيزيولوجية التي قام بها أبي الأسود الدؤلي.

وقد حدد ابن جني طبيعة العلاقة التي تربط الصائت بالصامت على أساس التجاذب الحاصل بينهما بالقول «الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجذبها إلى جهة الحرف التي هي بعضه»¹¹، بمعنى أنها تثير الصامت وتبث فيه الروح.

أما الثنائيات التي مثلت القيم الخلافية؛ فتتجلى في الصفات الأساسية والثانوية للصوت اللغوي وهي: " الجهر والهمس"، "الشدة والرخاوة"، "الإطباق والانفتاح"، "الاستعلاء والاستفال"، "الإصمات والذلاقة"، "الخفة والثقل"، "الاستحسان والاستهجان"، وهي تصنيفات فيزيولوجية وفيزيائية للصوت اللغوي العربي؛ فلا يمكننا تمييز المجهور إلا إذا وجد المهموس، ولا الشديد إلا بالرخو والأمر ينطبق على باقي الثنائيات الصوتية المتقابلة. أما فيما يتعلق بأهم ثنائية شكلت قيما خلافية في القراءات القرآنية؛ فتمثل في ظاهري "التفخيم والترقيق"، التي سنقف تفصيلا عندها في هذا البحث لأهميتها في استجلاء الأثر الدلالي الحاصل ضمن النص القرآني المعجز.

3. التفخيم والترقيق:

1.3 التفخيم :

جاء في تاج العروس أن «التفخيم هو التعظيم، يقال أتينا فلانا ففخمناه أي عظمناه ورفعنا من شأنه، والتفخيم ترك الإمالة في الحروف وهو لأهل الحجاز كما أن الإمالة لبني تميم»¹²، كما تحيل مادة (فخم) في "تهذيب اللغة" على: «فَخْمٌ، يَفْخُمُ، فَخَامَةٌ، فهو فخم»¹³، والتفخيم: «التعظيم، وفخّم الكلام أي ضمّه والتفخيم في الحروف ضد الإمالة»¹⁴.

إن مصطلح التفخيم من أقدم المصطلحات التي اعتمدها النحاة العرب في أبحاثهم اللغوية، بدءا بإمام النحاة "سيبويه" الذي تطرق إليه ضمن حديثه عن الحروف المستحسنة في قراءة القرآن والشعر، لقوله: «وألف التفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة»¹⁵؛ دون التفصيل في مصطلح التفخيم، أما ابن جني فقد ألمح إليه في حديثه عن الفرق بين ألف الإمالة وألف التفخيم؛ فأما «ألف الإمالة (فهي) التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك في عالم وخاتم. عالم وخاتم. وأما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو، نحو قولهم: سُلّامٌ عليك، وقَامَ زيد. وعلى هذا كتبوا: الصلوة والزكوة والحياة بالواو، لأن الألف مالت نحو الواو»¹⁶.

ومن منظور آخر، ورد التفخيم Emphasis للدلالة على الإطباق Velarisation الذي يساعد على تحقيق الصوت المفخم وبالأخص في القراءات القرآنية؛ وأصوات الإطباق هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، و«لولا الإطباق لصارت الطاء دالا، ولصارت الصاد سينا، ولصارت الظاء ذالا، ولخرجت الضاد من الكلام لأن ليس بشيء من موضعها غيرها»¹⁷، وهذا تأكيدا على أن الضاد ليس لها ما يقابلها في الترقيق؛ لكن المتأخرين من علماء اللغة خالفوا رأي سيبويه في ذلك، وأوردوا لها مقابلا وهو الدال.

ومن ناحية أخرى، يعد التفخيم «اعتدال الصوت وتقريب بعضه من بعض حتى يربو الحرف ويغلظ»¹⁸، ولو قارنا بين نطق صوت الصاد وصوت السين في المفردتين (صعب) و(سهل) لوجدنا أن الصاد تملأ الفم

بصداها بخلاف السين؛ فالتفخيم « أثر سمعي ينتج عن عوامل فسيولوجية متداخلة ندرك منها عاملين مهمين، أولهما: ارتفاع مؤخر اللسان تجاه أقصى الحنك the velum أو the soft palate (الحنك اللين) فيحدث تغير في التجويف الفموي، محدثا رنيناً مسموعاً Resonance وثانيهما: رجوع اللسان إلى الخلف بصورة أسرع مما يحدث له في أثناء النطق بالأصوات المرفقة»¹⁹ ، وهذا ناتج عن آليتين أساسيتين إحداهما نطقية والأخرى سمعية؛ فالتفخيم هو « ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات عضوية تغير من شكل حجرات الرنين بالقدر الذي يعطي هذه الصفة الصوتية المفخمة»²⁰؛ فالصوت المفخم من الناحية السمعية أقوى من نظيره المرقق الذي يعد أضعف منه.

أما عند علماء التجويد فهو « عبارة عن تسمين الحرف يجعله في المخرج سمينا، وفي الصفة قويا، ويرادفه التغليف، إلا أن التفخيم غلب استعماله، في الرّاءات، والتغليظ غلب استعماله في بعض اللّامات»²¹ ، ويسمى كذلك استعلاء ملازمته له؛ « فما كان استعلاؤه أبلغ كان تفخيمه أبلغ»²² ، ولأن الحروف المستعلية كلها مفخمة، عكس الحروف المستفلة التي لا يمكن تفخيمها عدا الرّاء واللام في بعض المواضع.

وعليه، فأصوات التفخيم هي أصوات الاستعلاء السبعة: «الطّاء، والظّاء، والحاء، والغين، والقاف، والصاد، والضاد. فهذه السبعة هي حروف الاستعلاء، مفخمة بإجماع من أئمة الأداء، وأئمة اللغة الذين تلقوها من العرب الفصحاء»²³، وما عدا هذه الحروف فهي مرفقة باستثناء اللّام والرّاء؛ فإنهما تفخمان وترققان بحسب مجاورة الأصوات لهما في السياق.

إضافة إلى ذلك، اعتبر علماء التجويد التفخيم والاستعلاء والإطباق ملامح أدائية تنتمي إلى زمرة واحدة، يقول القرطبي في هذا السياق: «التفخيم والإطباق والاستعلاء من واد واحد»²⁴ مع وجود فارق بسيط وهو أن «الاستعلاء يلزم حروفه فلا يزول عنها، وكذلك الإطباق، بخلاف الترقيق والتغليظ فإنهما يتعاقبان على الرّاء واللام، كالإمالة والتفخيم في الألف»²⁵، وخصّ هذه التعاقب بحرفي الرّاء واللام، لأن التفخيم والترقيق صفتان غير ثابتتان فيهما، عكس الإطباق والانفتاح اللذان يلازمان الأصوات التي تحمل هاتين الصفتين.

2.3 الترقيق :

جاء في تاج العروس أن: الرقة بالكسر الرحمة، ومنه الحديث اغتموا الدعاء عند الرقة، فإنها رحمة. يقال رق له، وفي حديث الحسن البصري، من رق لوالديه ألقى الله عليه محبته، والرقة أيضا (الدقة). والترقيق تلطيف وتزيين.²⁶

وجاء في التهذيب: «الرق العبودية والرقيق العبيد، قال الأنباري، قال أبو العباس، سمي العبيد رقيقا، لأنهم يرقون لمالكهم»²⁷، ويطلق الترقيق على الحروف المستفلة في صفتها التمييزية عدا اللام والرّاء، لأنهما يتغيران من الناحية النطقية بحسب موقعهما في نسق معين ومجاورتهم لأصوات أخرى.

كما يعد الترقيق من المصطلحات التي اعتمدها علماء التجويد والقراءات القرآنية، كمقابل لمصطلح التفخيم، وهو «عبارة عن نحول يدخل على جسم الحرف فلا يمتلئ الفم بصداه»²⁸، لأنه بمثابة تنحيف يلحق

الأصوات اللغوية غير أصوات الاستعلاء؛ «فحروف الاستعلاء كلها مفخمة، ولا يجوز تفخيم شيء من حروف الاستعلاء إلا الراء واللام في بعض أحوالهما»²⁹، بالإضافة إلى أنه يحدث أثرا سمعيا ناتجا عن «عدم تراجع مؤخرة اللسان بحيث لا يضيق فراغ البلعوم الفموي عند النطق بالصوت»³⁰

وأصوات الترقيق تمثلها كل الأصوات باستثناء الأصوات المطبقة وصوتي الراء واللام، وقد خصّ ابن الجزري الأصوات المستقلة بظاهرة الترقيق؛ فلا يجوز تفخيمها عدا صوت «اللام من اسم الله تعالى بعد فتحه أو ضمّه إجماعا أو بعد بعض حروف الإطباق في بعض الروايات، وإلا الراء المضمومة أو المفتوحة مطلقا في أكثر الروايات والسكنة في بعض الأحوال»³¹.

4 . أقسام ومراتب التفخيم والترقيق في القراءات القرآنية:

جاء هذا التقسيم لإظهار الحالات التي تتبدل فيها الحروف أثناء النطق بها، وهي ثلاثة أقسام على النحو الآتي:

- حروف مفخمة دائما: وهي حروف الاستعلاء (خص ضغط قظ).
- حروف تفخم تارة، وترقق تارة أخرى، وهي: الألف المدية، اللام، الراء، وأضيفت إليها غنة الإخفاء.
- حروف مرققة دائما، وهي باقي الحروف.

وقد يأتي التفخيم في حروف الاستعلاء تفخيما لازما، بمراتب متفاوتة حسب درجة الإطباق زيادة أو نقصانا، وهي كالاتي³²:

1.4. المرتبة الأولى: وهي أعلى المراتب وأقواها، حيث يقع الصوت المستعلي مع الفتحة الطويلة، مثل: "يُضَاعَفُ" في قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ الفرقان، الآية ٦٩، و"الطَّامَّةُ" في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ النازعات، الآية ٣٤.

2.4. المرتبة الثانية: وتتمثل فيما يقع فيه الصوت المستعلي متأثرا بالفتحة القصيرة معه، مثل: «ضَرَبْتُمْ» في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ النساء، الآية ٩٤، و«صَبَرَ» في قوله عز وجل: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الشورى، الآية ٤٣، و«حَلَقَ» في قوله تعالى: ﴿حَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ النحل، الآية ٤، و«يَقْطَعُونَ» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الرعد، الآية ٢٥.

3.4. المرتبة الثالثة: تتمثل في وقوع الصوت المستعلي مع الضمة الطويلة، مثل: «حَلَفُوا» في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَفُوا وَحَلَفُوا كَخَلْفِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ الرعد، الآية ١٦، و«لِيُطْفِئُوا» في قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ فَتُورَ اللَّهُ مِثْمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الصف، الآية ٨.

4.4. المرتبة الرابعة: تتمثل في وقوع الحرف المستعلي مع الضمة القصيرة، مثل: «فَصْرَبْتُ» في قوله تعالى:، «وَإِذَا صُرِفَتْ» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف، الآية ٤٧. 33

5.4. المرتبة الخامسة: تتمثل في الحروف الساكنة مثل " يَطْعُمُهُ " في قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَبْدِ اللَّهِ بِهِ﴾ الأنعام، الآية ١٤٥؛ فإذا وقع حرف الاستعلاء الساكن بعد فتح يعطى تفخيم المفتوح، وإذا وقع بعد ضم يعطى تفخيم المضموم مثل: " يُطْعَمُونَ"، لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ سورة الإنسان، الآية ٨، أما إذا وقع بعد كسر يعطى تفخيما أدنى مما قبله، مثل "إِطْعَامٌ" في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ﴾ البلد، الآية ١٤. 34

6.4. المرتبة السادسة: حين يقع الحرف المستعلي مع الكسرة الطويلة، مثل: «عَصِيبٌ»، في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ سورة هود، ٧٧ و«حَصِيرًا» في قوله تعالى: عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ الإسراء، الآية ٨، و«مُحِيطٌ» في قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعْرُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هود، الآية ٩٢.

7.4. المرتبة السابعة: فتمثل في الحرف المستعلي حين يقع مع الكسرة القصيرة، مثل: «نُذِفُهُ» في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِفُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ الحج، الآية ٢٥، و«مُحِطٌ» في قوله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ الكهف، الآية ٦٨. 35

ومن هذا المنطلق، يمكن تحديد القيمة الخلافية التي تحدثها ثنائية "التفخيم والترقيق" في المنطوق اللغوي وفق ما ورد في النص القرآني.

5. اللام في لفظ الجلالة :

إن الأصل في لام العربية الترقيق؛ لكن قد تأتي مفخمة لتأثرها بالحركة التي تجاورها؛ فقد تفخم إذا وقعت بعد فتحة، نحو: "مِنَ اللَّهِ"، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ آل عمران، الآية ١٠، أو ضمة، نحو: "يَعْلَمُ اللَّهُ"، في قوله عز اسمه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الأحزاب، الآية ١٨ أما إذا وقعت بعد كسر تأتي مرققة، نحو: "بِسْمِ اللَّهِ" في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّهَا وَمُرْسَاهَا﴾ هود، الآية ٤١؛ فالقيمة الخلافية لظاهري التفخيم والترقيق تبدت من خلال الحركة (الصائت) التي جاورت صوت اللام؛ فأتت مفخمة بسبب تأثرها بحركتي الفتحة والضمة، ومرققة لجاورتها الكسرة.

وعليه، تحولت المفردة من الترقيق إلى التفخيم لتكسب الصوت قيمة دلالية ضمن السياق القرآني، ولأن أصل المفردة التفخيم " لفخامة المسمى به وجلاله، وذلك أصل فيه إلا أن يمنع منه مانع³⁶ "؛ كأن يأتي لفظ الجلالة في بعض الحالات مرفقا، نحو: "الله" في قوله عز وجل في الآية الكريمة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الأنعام، الآية، ١، كما أن هذا التباين بين اللام المفخمة والمرققة يأتي نتيجة « وضع مؤخرة اللسان، حيث ترتفع ناحية الطبق عند نطق اللام المفخمة، وتنخفض إلى قاع الفم عند نطق المرققة»³⁷

أما الرء فالأصل فيها التفخيم؛ لكنها قد ترد مرققة عند بعض القراء؛ «فترقق مع الكسرة لتسقلها، وتفخم مع الفتحة والضمة لتصعده»³⁸.

يقول ابن الجزري في باب الرءات³⁹ :

ورقق الرء إذا ما كسرت كذاك بعد الكسر حيث سكنت
إن لم تكن من قبل حرف استعلاء أو كانت الكسرة ليست أصلا
والخُلفُ في فرق لكسرٍ يوجد وأخف تكريرا إذا تُشدد

ففي قوله تعالى ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ سورة ص، الآية ١٨، جواز الوجهين في مفردة "الإشراق"؛ فقد تأتي مفخمة لأن ما بعدها صوت استعلاء، وقد تأتي مرققة لأن ما قبلها كسر، وفي قوله عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ الكهف، الآية ٧٨، تنطق "فِرَاقُ" مفخمة، لأن ما بعدها صوت مستعل، ومرققة لوقوعها بعد كسر.

ومن هنا، يمكن القول بأن ثنائية التفخيم والترقيق تتأثر بالصوائت التي شكّلت هذه القيمة الخلافية للمنطوق ضمن سياقه القرآني .

بالإضافة إلى أن السمة الفونولوجية هي التي تحدّد التباينات الصوتية المستنبطة من الأنساق اللسانية المختلفة؛ فإذا قابلنا بين السين والصاد في "السرائر" و"الصراط" نجد أنهما يتماثلان في المخارج والصفات الأساسية والثانوية؛ فهما صوتان صفيريان، مهموسان، ورخوان، لهما مخرج واحد وهو الأسلة؛ غير أن الصفة الفارقة بينهما هي التي مثلت القيمة الخلافية؛ فالسين منفتحة ومستقلة، أما الصاد فهي مطبقة ومستعلية، مما أدى ذلك إلى تفخيم المفردة أثناء النطق بها، لأن الصوت المستعلي أكثر قوة من الصوت المستقل؛ وخير دليل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم، نحو: "المصيرون"، لقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْبِكَ أَمْ هُمْ الْمُضْطَبَّرُونَ﴾ الطور، الآية ٣٧، وأصل المفردة القرآنية «المصيرون»؛ فتجمعت معالم القوة في الإطباق والاستعلاء، أما معالم الضعف تجمعت في الانفتاح والاستفال؛ الأمر الذي منح هذه المفردة قابلية التفخيم، لأن السيطرة هنا جاءت بمعنى التسلط والتحكم في الأرزاق.

والأمر ذاته ينطبق على "السرائر" و"الصراط"؛ فالمعنى الجامع بينهما هو الطريق؛ غير أن «السرائر: الطريق المستعمل»⁴⁰ أمّا «الصراط: الطريق المستقيم»⁴¹.

وعليه؛ فالصاد شكلت قيمة خلافية، لأنها النظير المفخم لصوت السين المرقق، والتي أدت المعنى الحقيقي لكلمة الصراط التي يقصد بها الطريق المستقيم. وكمثال آخر على ذلك، قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ البقرة، الآية ٢٤٧، وقوله أيضا: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ الأعراف، الآية ٦٩؛ فجاءت "بسطة" في الآية الأولى مرفقة، بينما "بسطة" في الآية الثانية وردت مفخمة، لأن «السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد والصاد الذي هو أقوى وأظهر أليق بالقبيلة»⁴²؛ فصفات الإطباق والاستعلاء والتفخيم في الصاد جعلت "بسطة" للجمع، أما الانفتاح والاستفال والترقيق في السين خصت "بسطة" بالمفرد . من جانب آخر، ذكر ابن جني مؤدّي الأصوات لدلالاتها في مؤلفه الخصائص، لقوله: «أفلا ترى إلى تشبيههم الحروف بالأفعال وتنزيلهم إياها على احتدائها. ومن ذلك قولهم الوسيلة والوصيلة، والصاد - كما ترى - أقوى صوتا من السين، لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة... فجعلوا الصاد لقوتها، للمعنى أقوى، والسين لضعفها، للمعنى أضعف»⁴³، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المائدة، الآية ٣٥، بمعنى التقرب إلى الله عز وجل بالطاعة، أما الوسيلة فيقول الحق تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ المائدة، الآية ١٠٣؛ فمعناها «التي وصلت أباها من أولاد الغنم فلم تُذبح»⁴⁴ أما في اللفظتين "محذورا" و"محظورا"؛ تتمثل القيمة الخلافية في إحلال فونيم الظاء محل الذال، لتحدث تبديلا في دلالة المفردة القرآنية من الحذر إلى الخطر، يقول الحق تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ الإسراء، الآية ٥٧، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الإسراء، الآية ٢٠. وفي نفس السياق، يقول ابن الجزري في منظومته⁴⁵:

وَحَلَّصَ انْفِتَاحَ مَحْذُورًا عَسَى حَوْفَ اشْتِبَاهِهِ بِمَحْظُورًا عَصَى

6. خاتمة:

- من خلال ما سبق ذكره في هذا البحث، يمكننا الوقوف على جملة من النتائج التي نجملها في النقاط الآتية :
- إن النظام التقابلي تشكلت وفقه ثنائيات ذات قيمة تمييزية نتجت عنها قيما خلافية تؤدي تمايزا دلاليا للمفردة ضمن سياق معين .
 - تمثل ثنائية "الصامت والصائت" الأصل الذي تتفرع عنه باقي الثنائيات المتقابلة المشكّلة للقيم الخلافية.
 - تتحدّد القيمة التمييزية لظاهرتي التفخيم والترقيق تبعاً لما يعرف بالقيم الخلافية للمنطوق اللغوي في سياقه القرآني.
 - إن التفخيم والترقيق من أهم الثنائيات التي وقعت ضمن ازدواجية لغوية، لما تؤديه من تلوينات صوتية ودلالية.

- تتفرّع الأصوات اللغوية من حيث تفخيمها وترقيقها إلى أصوات مفخمة بصفة ثابتة تمثلها الأصوات المستعلية، وأخرى مرفقة تمثلها الأصوات المستفلة باستثناء حرفي اللام والراء لتأثرهما بالأصوات المجاورة لهما.
- يتأثر كل من التفخيم والترقيق بالصوائت القصيرة والطويلة التي تجاورهما؛ فتحدث قيمة خلافية أثناء النطق بالصوت اللغوي ضمن النص القرآني .
- إنّ لام العربية أصلها الترقيق، لكن قد ترد مفخمة لتأثرها بالحركة المجاورة لها.

7-الهوامش:

- 1- سورة الذاريات، الآية 49.
- 2- أبو السعود أحمد الفخراني، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991م، ص21.
- 3- المرجع نفسه، ص22.
- 4- لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطبيقا)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989م، ص11.
- 5- كمال بشر، الأصوات اللغوية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص119.
- 6- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994م، ص67.
- 7- أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: محمد حسن وأحمد رشدي شحاتة عامر، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص46.
- 8- أحمد محمد منقور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، 2008، ص91.
- 9- حميد بوكري، تجليات التوازي في بنية اللغة الشعرية عند أبي الطيب المتنبي، مطبعة الأمانة، الرباط، ط1، 2013م، ص217.
- 10- أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص17.
- 11- المرجع نفسه، ص26-27.
- 12- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مادة (فخم)، فصل الفاء، من باب الميم، ج09، ص10.
- 13- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تح: عبد العظيم محمود، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج07، ص453.
- 14- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ-2003م، ص145.
- 15- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، ج4، ص432.
- 16- أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، سر صناعة الإعراب، دراسة وتح: حسن هندراوي، دار القلم، دمشق، سورية، ط2، 1993م، ج1، ص50.
- 17- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، ج4، ص436.
- 18- عبد الغفار حامد هلال، اللسانيات وعلم اللغة الحديث، تطبيق على تجويد القرآن الكريم، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1439هـ-2018م، ص89.
- 19- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للنشر، القاهرة، د، ط، ص394.
- 20- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د ط، 1990م، ص90.
- 21- محمد عصام مفلح القصان، الواضح في أحكام التجويد، دار النفائس للنشر، بيروت، ط3، 1998م، ص103.
- 22- غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، 2003م، ص402.
- 23- أبو الأصبع السمتاني المعروف بابن الطرخان، الإنباء في أصول الأداء، تح: حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، ط1، 2008م، ص40.
- 24- عبد الوهاب بن محمد القرطبي، الموضح في التجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، ص179.
- 25- المرجع نفسه، ص110.
- 26- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، فصل الراء من باب القاف، ج06، ص358.
- 27- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، ج08، ص284.
- 28- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، 1998م، ص152.

- 29- محمد بن أبي بكر المرعشي (ت1150هـ)، جهد المقل، تح: سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 2008م، ص153-154.
- 30- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ص150.
- 31- المرجع نفسه، ص152.
- 32- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، ترتيب القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ-2004م، ص76.
- 33- ينظر: عبد الغفار حامد هلال، اللسانيات وعلم اللغة الحديث، ص90.
- 34- ينظر: محمد أحمد معبد، الملخص المفيد في علم التجويد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، د ط، ص86.
- 35- ينظر: عبد الغفار حامد هلال، اللسانيات وعلم اللغة الحديث، ص90.
- 36- غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص411.
- 37- مناف مهدي الموسوي، علم الأصوات اللغوية، دار الكتب العلمية، بغداد، ط3، 1419هـ-2007م، ص70.
- 38- غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص406.
- 39- محمد بن محمد بن علي بن يوسف ابن الجزري (751 - 133هـ)، منظومة الجزرية، نسخة مطابقة لنسخة الشيخ صفوت محمود سالم المتصلة السند بالناظم، شعبة توعية الجاليات بالزلفي، ص13.
- 40- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، ط1، الدار الشامية، بيروت، ص407.
- 41- المرجع نفسه، ص483.
- 42- فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1422هـ-2001م، ص58.
- 43- أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، مطبعة دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1952م، ص160.
- 44- أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1419هـ-1998م، ص339.
- 45- محمد بن محمد بن علي بن يوسف ابن الجزري (751 - 133هـ)، منظومة الجزرية، ص14.

8. قائمة المراجع:

القرآن الكريم

- أبو الأصبغ السّماتي المعروف بابن الطّحان، الإنشاء في أصول الأداء، تح: حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، ط1، 2008م.
- أبو السعود أحمد الفخراني، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991م.
- أبو الفتح عثمان ابن جني: -الخصائص، تح: محمد علي النجار، مطبعة دار الهدى، للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1952م.
- سر صناعة الإعراب، تح: محمد حسن وأحمد رشدي شحاتة عامر، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ-2003م.
- أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1419هـ - 1998م.

- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة، الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، ج4.
- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تح: عبد العظيم محمود، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج 07.
- أحمد محمد منقور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، 2008.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، ط1، الدار الشامية، بيروت
- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994م.
- حميد بوكري، تجليات التوازي في بنية اللغة الشعرية عند أبي الطيب المتنبي، مطبعة الأمنية، الرباط، ط1، 2013م، 217.
- عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، 1998م.
- عبد الغفار حامد هلال، اللسانيات وعلم اللغة الحديث، تطبيق على تجويد القرآن الكريم، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1439هـ - 2018م.
- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، ترتيب القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ - 2004م.
- عبد الوهاب بن محمد القرطبي، الموضح في التجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1.
- غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، 2003م.
- فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1422هـ - 2001م.
- كمال بشر: - الأصوات اللغوية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م.
- علم الأصوات، دار غريب للنشر، القاهرة، د.ط.
- لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989م.
- محمد أحمد معبد، الملخص المفيد في علم التجويد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، د.ط.
- محمد بن أبي بكر المرعشي (ت1150هـ)، جهد المقل، تح: سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 2008م.
- محمد بن محمد بن علي بن يوسف ابن الجزري (751 - 133هـ)، منظومة الجزرية، نسخة مطابقة لنسخة الشيخ صفوت محمود سالم المتصلة السند بالناظم، شعبة توعية الجاليات بالزلفي.
- محمد عصام مفلح القصان، الواضح في أحكام التجويد، دار النفائس للنشر، بيروت، ط3، 1998م.
- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، فصل الرءاء من باب القاف، ج06.
- مناف مهدي الموسوي، علم الأصوات اللغوية، دار الكتب العلمية، بغداد، ط3، 1419هـ - 2007م.